

الخطاب الشعري

بين

الواقع والحلم

obeikandi.com

الشعراء والواقع الاجتماعي

الشاعر جزء من البيئة ، وكيان فاعل فيها يؤثر ، ويتأثر في حلقة مستمرة لا تنفصل ، إذ " يتأثر الشاعر بالواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه ، وهو في نفس الوقت يؤثر في الواقع الاجتماعي بما يصدر عنه من أشعار يتلقاها أفراد المجتمع ويتأثرون بما فيها " ^(١) ومعروف أن يكون هذا التأثير نسبياً يختلف من شاعر لآخر كل يتناول الواقع الاجتماعي من وجهة نظره الخاصة .

والتأمل شعر شعراء العصر الحديث : البارودي وشوقي وحافظ يجد صدى واضحاً للواقع الاجتماعي .

فقد تناول البارودي الواقع من حوله متمثلاً في الناحية السياسية ، وما أحاط به من ظروف أحداث الثورة العربية مروراً بتجربة النفي والابتعاد عن الوطن فصور ذلك أصدق تصوير .

- فقد ثار بينه وبين إخوانه من أنصار الثورة العربية موقف كان يرى فيه أن يتمهلوا قليلاً قبل إعلان المواجهة لأنه يعلم مدى ضعف البلاد ، و أن الطامعين سيعينون الاحتلال ، لكن وجوده بينهم حال دون ذلك ، يقول ^(٢) :

نصحت قومي وقلت الحرب مفاجئة

وربما تاح أمر غير مظنون

١- د / مصطفى هدار ، مشكلة السرقات في النقد الأدبي ص ٢٦١ مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٥٨ م .

٢- د / محمد زيدان ، محمود سامي البارودي رب السيف والقلم ص ٨١ المجلس القومي للشباب أغسطس ٢٠٠٩ م .

فخالفوني وشبّوها مكابرة
وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على مائيس في خلد
ويخطيء الظن بعض الأحياء
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة
وأصبح الشر أمرًا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي ومن مشيمي
صدق الولاء وتحقيق الأظانين
ويقول متحسّرًا على ما مر به من حياة كريمة في أيام مجده قبل النفي :^(١)
لا تحسبن العيش دام لمترف
هيهات ليس على الزمان دوام
تأتي الشهور وتنتهي أيامها
لمع السراب وتتقضي الأعوام
والناس فيما بين ذلك وارد
أو صادر تجري به الأيام
لا طائر ينجو ولا ذو مخلب
يبقى وعافية النفوس حمام

١- المصدر نفسه ص ٦٤ .

وقال يذكر مقامه بجزيرة سرنديب :-^(١)

ردوا على الصَّبَا من عصري الخالي
وهل يعود سواد اللمة البالي ؟
ماضٍ من العيش ملاحت مخايله
فس ساحة الفكر إلاَّ هاج بلبالي
سلت قلوب ، فقرت في مضاجعها
بعد الحنين وقلبي ليس بالسالي
لم يدر من بات مسرورًا بلذته
أني بنار الأسى من هجره صالي
يا غاضبين علينا هل إلى عِدَّةٍ
بالوصل يوم أناغي فيه إقبالي
غبتم فأظلم يومي بعد فرقتكم
وساء صنع الليالي بعد إجمالٍ
ويقول في القصيدة نفسها :

قد كنت أحسبني منكم على ثقة
متى منيت بمالم يجر في بالي
لم أجن في الحب ذنبًا أستحق به
عنبًا ولكنها تحريف أقوالٍ

١- المصدر نفسه ص ٩٠ .

ومن أطاع رواة السوء نفّره
عن الصديق سماع القيل والقال
أدهى المصائب غدر قبله ثقة
و أقبح الظلم صد بعد إقبال
لا عيب فيّ سوى حرية ملكت
أعنتني عن قبول الذلّ بالمال
تبعث خطة آبائي فسرت بها
على وتيرة آداب وآسال
فما يمر خيال الغدر في خلدي
ولا تلوح سمات الشر في خالي
قلبي سليم ونفسي حرة ويدي
مأمونة ولساني غير ختال
لكنني في زمان عشت مغترّباً
في أهله حين قلّت فيه أمثالي
بلوت دهري فما أحمدت سيرته
في سابق من لياليه ولا تالي

وواضح بيّن ما اكتسبه البارودي من خبره عميقة ودراية واسعة بالنفس البشرية وأطوارها وطبائعها ، وما تنطوي عليه ، يتجلي ذلك في الحكّم الكثيرة التي ضمنها شعره فجاءت تشير إلى أصالة الشاعر وعمق تجربته بالواقع الاجتماعي الذي عاشه بخلوه ومره ، فتحدث عن تجربة الاغتراب ، وعُرج منها على ما أحاط من

طبائع غادرة ، وما قابله من خيانة وتبدل وتلون تأباه نفسه المستقيمة وسماته
الطيبة التي ورثها عن آبائه وأجداده .

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي يرصد الواقع الاجتماعي بعين ثاقبة وعقل
واع ، فوضع تاريخ مصر العريق ، وأحداثه العجيبة تحت مجهر شاعريته الفذة فأزال
الغبار عن أحداث التاريخ وجعلها مجلوة واضحة أمام عين القارئ وسطرها شعراً
غنائياً ومسرحية تاريخية حاز به قصب السبق ، ونال فضل الريادة " والدارس
للمشوقيات يحس بأن رؤية أمير الشعراء لمصر وواقعها الاجتماعي ، إنما هي رؤية
مصر التاريخ بما وقع فيه من أحداث عبر قرون طويلة ، ومن ثم جاءت هذه الصور
ممهورة بتوقيعات فرعونية ويونانية وبطلمية وقبطية وإسلامية وعربية وعثمانية "(^١)
وقد بدأ أمير الشعراء شعره الغنائي متحدثاً عن طوائف المجتمع راصداً
طبقاته وأفراده : المعلم ، القاضي ، العامل ، الطبيب وغيره ، يقول في فضل المعلم : (^٢)

قم للمعلم وفه التبجيلا

كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي

بينني وبين شيء أنفساً وعقولا

١- محمد عويس محمد ، الواقع الاجتماعي في شعر حافظ وشوقي ، ص ٢٤٦ مجلة فصول ، المجلد الثالث
العدد الثاني يناير ١٩٨٣ م .
٢- انظر الشوقيات ط ص ١٨٢ .

ثم يتوجه بالخطاب إلى المعلميه ناصحًا ومرشدًا بقوله : ^(١)

ربوا على الإنصاف فتیان الحمى

تجدوهم كهف الحقوق كهولا

فهو الذي يبني الطباع قويمه

وهو الذي يبني النفوس عدولا

ويقیم منطق كل أعوج منطق

ويريه رأيًا في الأمور أصيلا

ثم يتحدث عن القضاء ومكانته في المجتمع ، وما ينبغي أن يكون للقضاء

من مكانة رفيعة ، لأن بهم يعتدل ميزان الكون وتستقيم أمور الحياة فيقول :

مصر بنيت لقضاءها

ركنًا على النجم ارتفع

فيه احتمى استقلالها

وبه تحصن وامتنع

فليهنها وليهنها

أن القضاء به اضطلع

الله صان رجاله

مما يدنس أو يضع

ثم يخاطب العمال مشيدًا بما يقدمونه ناصحًا بمزيد من البذل والعطاء

للمشاركة في نهضة المجتمع ، فيقول : ^(٢)

١- المصدر نفسه ط ص ١٥٨ .

٢- المصدر نفسه ط ص ٩٠ .

أيها العمال أفنوا —

عمر كـدًا واكتـسابا

واعمـروا الأرض فـلـولا

سـعـيكم أمـست يبابـا

أُتقـنوا الصنعة حتـى

تأخذوا الخلد اغتـصابا

أُتقـنوا يحيـىكم الله

ويـرفـعكم جنابـا

ويتحدث شوقي عن اختلاف الأحزاب فيما بينهم مبيئاً أثر هذا الانقسام ومردودة على حياة الوطن ، يقول ^(١) :

إلام الخلف بينكم إلاما

وهذي الضجة الكبرى علاما ؟

تراميتم فقال الناس قوم

إلى الخذلان أمرهم ترامى

تبـاغيتـم كـأنكمو خلايا

من السرطان لا تجد الضماما

ثم يتحدث عن الوحدة بين عنصري الأمة (الأقباط والمسلمين) في مصر داعياً إلى نبذ الخلاف وروح الفرقة ، والعودة إلى التآلف والتضامن ، يقول ^(٢) :

نبـيد كـما بادت قبائل قلبنا

ويبقى الإمام اثنين : ميتاً وناعياً

١- المصدر نفسه ج ص ٢٢٢ .

٢- المصدر نفسه ج ٤ ص ٥٥ .

تعالوا عسى نطوي الجفاء وعهده
وننبذ أسباب الشقاق نواحيا
ألم تك (مصر) مهدنا ثم لحدنا
وبينهما كانت لكل معانينا
ألم تك من قبل (المسيح ابن مريم)
(وموسى) و (طه) نعبد النيل جاريا
وما زال منكم أهل ود ورحمة
و في المسلمين الخير ما زال باقيا
وهو لا ينسى دوره والتزامه بالقيم والأخلاق ، فلا ينفك يدعو إليها ويحث
الأجيال على التحلي بالخلق القويم كوسيلة لإصلاح الأجيال التي هي عماد
المستقبل ، يقول :^(١)
و إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن تولت مضوا في إثرها قدما
فما على المرء في الأخلاق من حرج
إذ ارعى صلة في الله أو رحما
وهكذا يتنقل شوقي في ربوع المجتمع يرصد قضاياها ، ويسجلها ، من دعوة
إلى الإصلاح ، إلى وصف حريق ميت غمر ، إلى رصد لأحوال الفقراء وغيرهم من
طبقات المجتمع مثبتا بذلك أن الشاعر الملتزم جزء لا يتجزأ من البيئة التي يعيش
فيها .

١- الشوقيات ج ١ ص ٢١٧ .

وكان الشاعر حافظ إبراهيم أكثر التصاقاً بمجتمه فلم يترك واحدة من قضايا المجتمع دون رصد ، ولعل ذلك لطبيعة نشأته ، حيث عانى كثيراً من أيام البؤس والشقاء ، على العكس من شوقي الذي نشأ في رغد وسعة من العيش حتى تغيرت حياته بعد النفي إلى الأندلس .

لقد كانت قضايا مجتمعه هي شاغلة الأول ، حتى احتلت معظم شعره ، يقول مبيهاً دعائم التقدم والإصلاح – كما يراها – في قصيدته التي نظمها في استقبال السير غورست :^(١)

إذا استوزرت فاستوزر علينا

فتى (كالفضل) أو (كابن العميد)

ولا تنقل مطاه بمستشار

يحيد به عن القصد الحميد

ويقول داعياً إلى إنشاء الجامعة :

و أسعدنا بجامعة وشيّد

لنا من مجد دولتك المشيد

وإن أنعمت بالإصلاح فابدأ

بتلك فإنها بيت القصيد

ويبين مدى ما يعاينيه الناس من شقاء وتعب في طول البلاد وعرضها ،

داعياً إلى إصلاح الحال بقوله :

١- ديوان حافظ إبراهيم ج ٢ / ص ٣٥ ، ٣٦ .

إذا ما ناح في (أسوان) باك
سمعت أنين شاك في (رشيد)
جميع الناس في البلوى سواء
بأدني الثغر أو أعلى الصعيد
تدارك أمة بالشرق أمست
على الأيام عاثرة الجدود
وكما دعا شوقي إلى ائتلاف الأحزاب ونبذ الخلافات ، كانت دعوة حافظ
إبراهيم إلى التضامن في مواجهة المحتل ، يقول : ^(١)
(فيا قصر الدوبارة) لست أدري
أحرب في جرابك أم سلام
أجنبنا هل يراد بنا وراء
فندقضي أم يراد بنا أمام
ويا حزب اليمين إليك عنا
لقد طاشت نبالك والسهام
ويا حزب الشمال عليك منا
و من أبناء نجدتك السلام
وها هو يرصد الظواهر في مجتمعه ، فيرى عادة الخمول والتواكل فيهب
داعياً إلى العمل والانطلاق ونبذ الكسل والتواكل ، يقول : ^(٢)

١- ديوان حافظ ج ٢ ص ٥٧ .

٢- ديوان حافظ ج ١ ص ٥٥ .

كاشف الكهرباء ليتك تعنى
باختراع يروض منا الطباعا
آلة تسحق التواكل في الشر
ق وتلقي عن الرياء القناعا
قد مللنا وقوفنا فيه نبكي
حسباً زائلاً وجداً مضاعا
إن فينا لولا التخاذل أبطأ
لأ إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمول تولا
ها لفاضت غرابية وابتداعا

وتستمر مسيرة الشعر مع المجتمع وأحداثه ، وتظل رسالة الشاعر باقية
متمثلة في هموم نفسه ووطنه والواقع الذي يحياه ، ويبقى القصيد شاهداً عبر
العصور ولولا هذه الرسالة – رسالة الشعر – ما أحطنا علماً بأخبار الجاهليين ،
وأيام العرب ووقائعهم .

obeikandi.com

الشعراء والحلم

obeikandi.com

كثيرة هي أحلام الشعراء ، وكثيرة طموحاتهم ، يذهبون بالخيال إلى حيث لا يتصور الإنسان ، ويخلقون إلى أبعد ما تتصور العينان وذلك مرده إلى أن الشعر مبني على التخيل ، ولا ينال الاستحسان إلا إذا جملة التصوير والبيان .

وفي طيات كتب الأدب كثير من تطلعات الشعراء وأحلامهم التي ينسجونها من خيوط شعرهم وشاعريتهم .

لقد عاش جبران خليل جبران حلم المدينة الفاضلة التي أطلق عليها البلاد المحجوبة ونسج لنا خيوط الحلم ، فرأينا مدينة يحتل فيها العقل المرتبة الأولى ، ويقطنها الفلاسفة الذين يتغنون بالجمال والحق ، وهي بلاد غائبة عنا لأنها لا توجد إلا في خيال الشعراء ، يقول :^(١)

هو ذا الفجر فقومي ننصرف
عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف
زهرة عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف
مع قلوب كل ما فيها عتيق
هو ذا الصبح ينادي فاسمعي
وهلمي نقف في خطواته
قد كفانا من مساء يدعي
أن نور الصبح من آياته
* * * *

١- البدائع والطرائف ، جبران خليل جبران - مطبعة يوسف كوى بمصر ١٩٢٣ م .

قد أقمنا العمر في واد تسر
بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابًا تطير
فوق متنيّه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير
و أكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبًا فالتهب
فغدونا نتردى بالرماد
واقترشناه وسادًا فانقلب
عندما نمنا هشيما وقتاد
يا بلادًا حبيت منذ الأزل
كيف نرجوك ومن أين السبيل ؟
أي قفر دونها أي جبل
سورها العالي ومن أين الدليل؟
أسراب أنت أم أنت الأمل
في نفوس تتمنى المستحيل
أمنام يتهادي في القلوب
فإذا ما استيقظت ولى المنام
أم غيوم طفن في شمس الغروب
قبل أن يغرقن في بحر الظلام

يا بلاد الفكر يا مهد الألى
عبدوا الحق وصلوا للجمال
ما طلبناك يركب أو على
متن سفن أو بخيل ورحال
لست في الشرق ولا الغرب ولا
في جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست في البر ولا تحت البحار
لست في السهل ولا الوعر الحرج
أنت في الأرواح أنوار ونار
أنت في صدري فؤاد يختلج

إنه يبحث عن الأمن والسعادة ، ينشدها ولكن من خلال الحلم بعالم
يتحقق فيه الخير والحق والجمال .. وتلك عادة الإنسان يحقق في الخيال والحلم ما
لم يتمكن من تحقيقه في الواقع .

والقصيدة تبدأ بحوار يجريه الشاعر مع نفسه الحائرة ، يطلب منها سرعة
الانطلاق والفرار من هذا الواقع المؤلم ، والابتعاد عن هذا العالم الذي لم يجد فيه
صديقاً يأنس إليه ، ويأوى إلى واحة صداقته ، يطلب منها الابتعاد عن هذا العالم
الذي لم يجد فيه مودة أو علاقة تربطه بمن يحيطون به فكل شيء في هذا الكون
غريب على نفسه وعقله ووجدانه ، كل شيء فيه يخفي خلفه الشر والألم ويبين
الشاعر أنه حاول الصبر على ما في الكون من شقاء وتعذب فلم ينفعه الصبر ولم يجد
شيئاً ، حاول أن يتخذه ثوباً فالتهب واشتعل وصار حريقاً واستحال رماداً فصار

الشاعر يتردى بالرماد واتخذة وسادة عند نومه فاستحالت الوسادة هشيماً وقتادا لذا صار الشاعر قلقاً وأخذ يبحث عن المأوى والملاجأ فوجد المأوى في خياله ، وراح ينسج حلماً جميلاً لبلاد مثالية حجبت عنه منذ الأزل ، وراح يبحث عنها في كل مكان ، ويسير وراءها في كل مقصد : في القفار وفي الجبال والوديان وفي ساحات الوهم وفوق تلال الخيال ، حتى تعب وأعياه البحث ، وأخذ منه الشقاء كل مأخذ ، فليس هناك الدليل الذي يرشده ويأخذ بيده ، وراح يتساءل عن كنه هذه البلاد التي يبحث عنها ، أهى سراب ؟ لأنها لا وجود لها في الواقع ، وهل هي أمل في تلك النفوس التي تتوق إليها - وهي بذلك تتمنى المستحيل - أم أنها حلم يراود الأرواح ويداعبها وسرعان ما يتلاشي عند ما يستيقظ الإنسان ؟ أم أنها سحببات وغيوم تختفي خلف أشعة الشمس ثم تتلاشي في تلال الظلمات الكثيفة .

وفي النهاية يفيق الشاعر على الحقيقة المرة ، وهي أن هذه البلاد لا وجود لها في الواقع إنما هي مجرد حلم لا هي في الشرق ولا في الغرب ولا في جنوب الكون أو شماله وليست في الجو - أيضاً - ولا في البحار ولا في السهول ولا الوعر ، ولكنها كائنة في أعماق الروح مجرد فكرة وضياء يبدد ظلمات اليأس والشقاء والقصيدة في مجملها صورة لانطلاق الشاعر بخياله ليحلم وينسج عالماً من الخير والحق والجمال " ومن الطبيعي أن الإنسان حينما تستضيء روحه بالمعرفة ، وتنفعل نفسه بكل قيم الحق والخير ، ثم يرى حياة الناس من حوله تتخبط في ظلمات الجهالة والحيرة ، وتستبد بها نوازع الشر والأنانية ، فإنه حينئذ سيشعر بالغربة النفسية ، وبأنه يعيش في عالم تسوده أحقاد البشر وأطماعهم ، وأن لا سبيل إلى السعادة والطمأنينة إلا بالفرار من هذا العالم ، وهنا تسرح روحه في آفاق عالمها المثالي فتحلم

بالجمهورية الفاضلة والجنة الضائعة والفردوس المفقود ، تحلم بعالم لا يسوده إلا الخير ، ولا يرى الإنسان فيه إلا المحبة " (١)

.. هكذا يرى الشاعر ملاذنه في الحلم عندما لم يغنه الواقع ولم يحقق له الأمن والسعادة ، ففي تأملاته ما ينشد ، وفي خياله ما يأمل ، وتلك طبيعة الشعر ينسج الشاعر من خيوط خيالاته ما يحقق له الخير في عالم لم يجن منه إلا التعب والشقاء . وقد عاش الشاعر إيليا أبو ماضي الحلم نفسه في قصيدته : (الغابة المفقودة) حيث يرى النعيم الدائم الذي ينشده الإنسان حيث يجد فيه رغد العيش وصفاء الحياة ، فما أشبه الحياة في هذه (الغابة المفقودة) بالمدينة الفاضلة لأفلاطون وبلاد جبران خليل جبران المحبوبة .

إن هذه الغابة المفقودة ليس فيها إلا الخير المحض ، لا يرنق صفوها حقد ، ولا يلوثها غدر ، ولا ينقص من صفائها طمع ولا تكدرها كراهية ، ليس فيها إلا الجمال المطلق بكل معانيه أينما يمم الإنسان وجهة لا يلمح إلا الجمال والجلال والنقاء ، لا تقع عينه فيها على قبيح ، ولا يجد فيها غولاً ولا تأثيماً .

" إنه يتخذ من نفسه رمزاً للإنسانية كلها ، ومن الغاية رمزاً لعالم الخير الذي تتحقق فيه أحلام الإنسان وأمانيه في ظلال وارفة من الأمن والطمأنينة ... ولم تنقطع روافد السعادة الحقيقية إلا منذ أن امتدت يد الإنسان للعبث بهذه الفطرة النقية ، نظرة الطبيعة السمحة التي صاغها الله من كل معاني الجمال والخير ، لتكون مهبط الحياة الرافهة السعيدة لبني الإنسان " (٢)

١- حركة التجديد الشعري في المهجر بين النظرية والتطبيق ، د / عبد الحكيم بلبع ، ص ٢٠٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠ م .

٢- المصدر السابق نفسه ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

يقول إيليا أبو ماضي في قصيدة (الغابة المفقودة)^(١) :

لله في الغابة أيا منّا
مأعنا بها إلاّ تلاشّيها
طوراً علينا ظل أدواحها
وتارة عطف دواليها
وتارة نلهو بأعشابها
وتارة نحصي أقاحيها
تسكت إن نشكو شحاريرها
كأنما التغريد يؤذيها
وإن تضحكنا سمعنا الصدى
يضحك معنا في أقاحيها
وإن مشينا فوق كثرانها
لاحقت فشاقتنا أدانيها
وفوقنا الأغصان معقودة
نوائب طال تدليها
لا غابتي اليوم كعهدي بها
ولا التي أحببتها فيها
ولا الندى در على عشبها
ولا الأقاحي في روايبها

١- ديوان الخمائل د . إيليل أبو ماضي ص ١٥٦ وما بعدها .

ولا الضحى يلقي على أرضها
شباك تبر من أعاليها
أهبطني أمسي إلى حضنها
شوقي إلى سجع قماريها
فلم تخمشنني بأوراقها
ولم تهطل لي سواقيتها
قد بدل الإنسان أطوارها
واغتصب الطير مأويها
وفت بالبارود جلودها
واجتث بالفاس دواليها
وشاد من أحجارها قرية
سكانها الناس وأهلوها

والغابة هي مسرح الحلم الذي راود الشاعر وعبر عن مضمونه ، لذلك كان المسرح يضم الزهر والعطر والطير إلى جانب الجداول والكتبان والغدران ، وبرزت مهارة الشاعر ومقدرته في إبراز هذه المفردات ليملاً نفس القارئ بالشوق والحنين والرغبة في الوصول إلى هذه الحياة الطليقة الرعدة .

لكن الشاعر يفيق من حلمه السعيد ليقف على الحقيقة المرة ، وعندما يبين أن غابته ليست كما عهدنا من أمن وطمأنينة إذ تغير حالها فلم تعد كما كانت فلم يعد للندى أثر على عشبها ولا الزهور تزين روابيها وما عاد الضحى يلقي ضياءه على

أرضها ، ولم يسمع تغريد طيورها حيث امتدت إليها يد الإنسان بالتغيير والتدمير والتلوّث فبدد صفاءها ونقاءها .

ولكن في النهاية يبقى الحلم ، ويبقى لجوء الشاعر إليه هرباً من دنيا الواقع المؤلمة حتى ولو لم يتحقق الحلم إلا أنه يكفي أن عاش فيه واستمتع بنسيجه العذب.